

غزو روسيا

تفشل فيه ثلاث دول في ثلاثة عصور

لادوار مرقص
من أعضاء المجمع العلمي

توطئة

أما الدول فهي أسوج ركائز يوشتر من دول أوروبا العظمى لا دولة صغيرة كما هي اليوم وكانت جبرشها تحت قيادة ملكها البطل المغوار كارلوس الثاني عشر في أوائل القرن السابع عشر . وأما الدولة الثانية فهي فرنسا تحت قيادة امبراطورها الطائر الشهيرة غازي مشارق الارض ومشاربها نابليون بونابرت الأول في أوائل القرن الثامن عشر . وأما الدولة الثالثة فهي ألمانيا المكبرة بعد ضم النمسا اليها وزعيمها الاكبر الطاغية هتلر الذي أخضع واستبد معظم الدول الاوروبية في اواسط القرن العشرين ايطالي ولا يزال وحى الحرب فيها دائرة بين الفريقين حتى اليوم . ولسكنها في مرحلتها الاخيرة ومصيرها النشل التام الذي يهدد انانيا النازية وأدلة فشلها تفند وضوحاً يوماً بعد يوم . ورحم الله القتائل :

ان الامور اذا بدت لونها فعلامه الادبار فيها تظهر

والذي اذكره في ما يلي من محفل أخبار الغزوتين الاولى والثانية مأخوذ عن كاتبين محببان في المرتبة العليا من رجال الاقلام وأرباب الافهام وما فولتير Voltaire والسكرت دي سيجور De Ségur وكلاهما فرنسي

اطلعت على فصل شائق دمجته راعة الكاتب العبقرى فولتير في وصف معركة بولنافا وهي المعركة الاخيرة الحاسمة التي وقعت بين الروس والاسوجيين ودارت فيها الدائرة على الجيش الاسوحي ولم تقم لاسوج بسددها قائمة . والمعركة تعرف بمعركة بولنافا باسم النمر الذي وقعت بجواره بالقيم أوكرانيا في جنوبي روسيا ومن أخصب أقاليمها وهي من الممرات العظيمة المنازلة في تاريخ الحروب ولا يزال الروس يعيدون حيناً بعد حين لذكرها وتعيد

الذين قاموا بها من قورمهم وهم في هذا التجديد معذورون بل يحقون لأن هذه المعركة فاقت ما قبلها وكان لها ما بعدها من نتائج السياسة والقوة والمجد بالنسبة الى الدولتين المتجاورتين روسيا وأسرج . معركة بولتافا قلصت مثل الاسوجيين وخضعت شوكتهم وقلبت أظانهم وأفقدتهم جانباً كبيراً من مملكتهم وردت دولتهم من دول الطبقة الاولى الى دول الطبقة الثالثة . وكان أثرها في الروس عكس ذلك على خط مستقيم فقد رفعت شأنهم وأثريت نفوس العالمين هيبتهم ورجعتهم وفتحت أمامهم مجالاً واسعاً لازدياد البسطة والنفوذ وإتمام الاصطلاحات العظيمة التي كانوا يسيرون في طريقها

ولكي يكون للقارئ صورة ذهنية صحيحة لوقائع تلك الايام ينبغي لنا أن نشبهه الى التفاوت العظيم بين حروب أيامنا الحاضرة وحروب ذلك العصر من جهة عدد الجيوش وأعدادها . فان حروب قرننا العشرين الحاضر تفوق الحروب القديمة أضعافاً مضاعفة لما أحدث في أيامنا من معدات ووسائل عسكرية ولزيادة الكبيرة التي حصلت لكل أمة بالنسبة الى عددها في القرون السابقة . فن المواب أو بما يجاور المواب أن نمد كل الف جندي في عهد بطرس الأكبر الروسي وعدوه كارلوس الاسوجي تعادل بعشرة آلاف جندي في حربنا الحاضرة كما ان كل الف جندي في عهد نابليون الاول يعادل خمسة آلاف جندي في هذه الايام . فاذا قرأ القارئ مثلاً ان كارلوس الاسوجي زحف على روسيا بثلاثين الف جندي فليتصور ان هذا الجيش هو بمثابة ثلاثمائة الف جندي في معارك أيامنا . وقس على ذلك نظائره

معركة بولتافا

قال فولتير : « وقعت معركة بولتافا الحاسمة في ٨ تموز (يوليو) من سنة ١٧٠٩ بين ملكين هما أشهر ملوك عصرها الملك كارلوس الثاني عشر الاسوجي والامبراطور بطرس الاول الروسي . أما كارلوس فقد توجهت اليه أنظار العالم بانتصاراته الجليلة على الروس مدة سبع سنوات متوالية . وأما بطرس فقد توجهت اليه أنظارهم بما بذله من الجهود والمساعي الجبارة في تلك السنوات التسع لانشاء جيش مدرب منظم مثل جيش أعدائه أولئك . كارلوس أحرز مجداً باهراً بفترحاته وشدة وتوجهه نحوهم المخاطر والأهوال . وبطرس أحرز مجداً باهراً بإدخال اصلاحات جمة على بلاده الواسعة وأمنه الكبيرة وبكونه لا يتهيب لخطر ويهرب منه كما دعه الدواخي الى مقاماته وتوحيده . ولكنه لا يعتمد البحث عنه والاصطلاء بناره عنقواً صدقواً كما كان يفعل كارلوس . كارلوس كان معتدلاً في مبادئه وأحواله

الخصوصية وهو يمثل حبة وأرمجة ونحوه لا يروقه إلا الجحد والعظة وأما ما وراء ذلك من الفوائد ففما يأتيه له . وأما بطرس فكان مقرراً في معيشته وسائر خصوصياته إفراساً عجياً أثر تأثيراً سيقاً في بينته وإن كانت بنية جبار عنيد وأفضى الى تقصير أجله في الحياة . ولم يكن يقدم على أمر إلا إذا أيقن من ورائه فمناً محسوساً لآمنه أو دولته . وأما ما وراء ذلك من أبهة ومجد واستطارة شهرة فهو عنده في المرتبة الثانية . كارلوس لقبه معاصروه بالملك الذي لا يقهر وهو لقب غير ثابت له فإن انكساراً واحداً يصيبه ينبغي أن يسلبه هذا اللقب وبكذبة وبكذب الذين ظلموه عليه . وقد جرى ذلك فعلاً . وأما بطرس فقد لقبه معاصروه بطرس العظيم أو بطرس الأكبر وهو لقب له ثابت لا يتزعزع لانه غير مدين لهذا اللقب بانتصارات وفترحات بل بإصلاحات جمة تدارك بها شعبه وحكومته . وهي إصلاحات مدعشة خالدة الأثر لا تنكرها أرض ولا سماه

« وإذا أراد القارئ أن يجعل على صورة ذهنية واضحة عن معركة بولتانا وموضعها فلينصوّر نهر بولتانا واقعاً في الشمال والمعسكر الاسرجي في الجنوب بحيل الى الشرق وعتاده على مسافة ميل ووراءه والنهر يجري بجوارهم من الشرق الى الغرب . أما القيصر الروسي فكان قد اجاز النهر على مسافة فرسخ من جهة الغرب وجعل ينظم معسكره هناك . وعند بزوغ الفجر خرج الاسرجيون من خنادقهم ومعهم أربعة مدافع فقط . وأما بقية المدافع فترك في المعسكر مع ثلاثة آلاف مقاتل وقد رابط أربعة آلاف آخرون عند العناد ومن ثم كان جيش الملك الاسرجي الزاحف واحداً وعشرين ألف مقاتل بينهم ستة عشر ألف أسرجي والباقيون من حلفائهم وأنصارهم

وكان من كبار قواد الجيش الاسرجي في ذلك اليوم وتشيد وروس وليفنووت وسبار وهلمتون وورغبرغ وهو من أقارب الملك كارلوس وغيرهم من القواد ومعظمهم كانوا قد اشتركوا في معركة نارقا من معارك تلك الحرب الطويلة الأمد . ومعركة نارقا من أغرب المعارك في فنيجتها إذ انتصر فيها ثمانية آلاف مقاتل أسرجي على تسعين ألفاً من جنود الروس فكانوا يبتدئون ذلك النصر العظيم ويترنحون بحديثه ويفضون به الى الجنود لانهاض الهجم واضربهم ناز الحماسة والامل . وهكذا كان فقد انتمشت قلوب الجيش الاسرجي بتلك الذكريات المحبذة وأخذوا يحفون جميعهم على عدوهم زحف الآمن المطمئن المنيء حبة وثقة بنفسه

« وكان تلك كارلوس يقود تلك الحملة وأكناً عفة تقودها الحيل وتقدم جيش المشاة وقد أمرت من حياته عناية خيالة الروس فبهلوا وهكذا بدأت تلك المعركة في الساعة

الرابعة والنصف من صليحة ذلك اليوم. وكانت خيالة الروس في الجانب الغربي إلى ميمنة جيشهم وقد نظم القائدان الروسيان مزريكوف والكونت كولوفان فرسانهما وقسموهما إلى فرق وكل فرقة تحملها مدافع كافية. فخلل القائد الاسوجي سلبينهاك رجاله على اولئك الفرسان حملة صادقة هائلة واستلحهم. وقد عرف الخبراء العسكريون في ذلك العهد ان الصدمة الاولى الاسوجية لا تطاق ولا يقف شيء في وجهها. فاخترق الاسوجيون صفوف الخيالة الروس وأحدثوا فيها الجوات واسعة حتى كادت تنفضضع ولكن الامبراطور بطرس هب إلى تدارك الحال وجمع شمل ما تفرق و معه رجاله فأصبحت قبضته برصاصة ذهبت بها وقائده مزريكوف قتل تحت ثلاثة جياد واستبشر الاسوجيون خيراً بذلك الحيلة وصرخوا بأعلى أصواتهم النصر النصر. وأما ملكهم كارلوس فكان يعلم ان المعركة لم ينته أمرها ولم تعرف نتيجتها وكان قد ارسل من منتصف الليل الجنرال كروتز و معه خمسة آلاف فارس لكي يهاجم جناح الجيش الروسي على حين يهاجم هو قلب ذلك الجيش. ولكن سوء الطالع خيم عليه فان الجنرال كروتز تاه هو ورجاله في تلك الفلوات ولم يظهر لهم أثر. وأما القيصر الروسي فبعد ما كاد يرقن بالهلاك من جراء تلك الصدمة وهو لما تعجلد وتمالك وأظهر منتهى الحزم والعزم حتى تمكن من لم تشتت خيالاته ثم هجم بهم هجوم القناب الجائئة على فرسان اسوج ولم يكونوا متعتمين بنجدة اخوانهم فرسان الجنرال كروتز مما سبقته الاشارة اليه فتعضروا. واخترق الروس صفوفهم وأسروا منهم في حملة من أسروه الجنرال سلبينهاك نفسه وهو أحد قوادم المتنازين وكان اثنان وسيمون مدفعاً روسياً نصلي العدو ناراً حامية وحماً حامية ثم تحركت مشاة الروس وهاجوا مشاة الاسوجيين الذين يتقدم الملك كارلوس

« ثم اصدر القيصر بطرس أمره الى الجنرال مزريكوف بأن ينسحب هو ورجاله شطر نهر بولنافا ويحول بين النهر والاسوجيين. فانفذ مزريكوف امر مولاة بمنتهى السرعة والمهارة ولم يكتف بأن يقطع الخط على أعدائه فضلاً بسلامتهم وبين اخوانهم للمعكرين عند النهر بل تصدى ايضاً لفرقة عددها ثلاثة آلاف مقاتل من جيش اسوج الاحتياطي فطوفها ثم رزقها شذر منذر. فاذا كان قد قام بهذا العمل من عند نفسه فروسيا مدينة له بحلاصها في ذلك اليوم الزهيب واذا كان القيصر قد أوعز به اليه فلا شك انه ملك عظيم يحسب من أقران وأكفأ عدوه كارلوس الثاني عشر

« ثم قام مشاة الروس من مكائهم وزحفوا في السهل الذي أمامهم كما ان خيالة من الاسوجيين همضوا من جهة اخرى وأمر كارلوس بتوسيع نطاق المعركة وجعلها عامة شاملة

وكان يساعده في تدابيرها للارشال رتييلد . فقسم الملك من بقي له من الجيش الى خطين المشاة في القلب والحيلة على الجناحين الايمن والاييسر . ولظم القيصر الروسي جيشه على هذه الصورة تقريباً وكان له رجحان العدد والعتاد ولا سيما في المدافع . وكان بارود الاسرجيين لمدافعهم الاربعة على أهبة النداء

وكان القيصر الروسي في وسط جيشه وهو يومئذ برتبة قائد الف اذا لم يشأ أن يتقلد الرتب العسكرية الا تدريجاً بحسب الاستحقاق الذي يراه له رؤساؤه فكان يخضع رسمياً وعسكرياً لقائد فرقته الجنرال كزيرمينوف في حركات الجيش المتعاقبة ولكنه باعتباره ملك البلاد وقصرها المقدس كان يهول بين صفوف الجنود راجعاً جرأداً شرقياً مطعماً أهدها اليه سلطان آل عثمان فيحض القواد والجنود على الصبر والاستبسال وبعداً كل واحد بحزاه الخبير وحسن المصير

« وعند الساعة التاسعة استأنفت المعركة عندها وأصاب قنابل الروس الجوادين اللذين يقودان محفة الملك كارلوس ففقت عليهما فاستبدل بهما مواهما . وما لبثت القنابل الروسية ان تمحّد أوارها فأصاب المحفة تقسماً فتخطمت وسقط الملك كارلوس عنها سقطة فظيعة كادت تذهب بحياته بعدما كبرت إحدى ساقيه فأسرع اليه أربعة وعشرون مقاتلاً من جنده لكي يحمّوه وينقذوه فهلك منهم على الأثر واحد وعشرون رجلاً وسلم ثلاثة رجال ومعهم ملكهم منجّيناً بجراحه . وعندئذ دبّ الخور والرعب الى قلوب الاسرجيين فتضعفوا وانضوى صفهم الأول الى الصف الثاني الذي ورائه ولكن الصف الثالث والى الأدبار وما لبثت الهزيمة أن أصبحت عمومية . مع ان القوة الروسية التي كاشفتهم مباشرة واجبرتهم على هذا المصير لم تكن الا عشرة آلاف مقاتل . فراحوا بما كان أعظم انقراض بين عزّة اسوج سابقاً وظلما لاحقاً ، وبين تقصير الجيش الروسي في أصح معركة فاردا وتبريزه في يومه بمعركة بولنافا !

« والذي يزعمه كتاب الامة الاسرجية ان تلك المعركة الحاسمة ما كان قومهم ليخسروها لو لم يرتكبوا فيها أخطاءاً فادحة . فيرد عليهم ضباط جيشهم قائلين : ان القلظ القادح الوحيد الذي ارتكبناه هو اننا خضنا لخمار تلك المعركة ونحن على ما نحن عليه من ضعف العدد والعتاد بالنسبة الى عدونا . خضناها في مجاهل بلاد التي يعرفها هو شيئاً شيراً ونحن نتلسسها تسلساً بالتحمين والتقدير . فلو أصغنا الى مشورة العقلاء من قرادنا بعدم التعرض لتلك المعركة أو تأجيل معادها ريثما استقر شروطنا وموائمها لما خانت بنا ويلاتنا . هذا ما يقرله ضباط اسوج وهو قرين الصواب ولا يقل صواباً عنه ان نأثمت الى العامل الاساسي في ذلك الخطأ

ذلك العامل هو نشوة الاسويجين بخمرة انتصاراتهم السابقة على الروس ولا سيما في معركة تارنا حيث دكهم البطر والغرور ولم ينظروا بعين القطة والحزم الى قوة عدوهم فكان من أمرهم ما كان

« ومن الذين وقعوا أسرى بيد الروس في تلك المعركة الدوق ورغبورغ والجنرال وتشيلد وكثير من القواد غيرهما . وأما المعسكر الاسويجي القائم تجاه نهر بولنافا فقد استولى عليه الروس وغنموا ما فيه من ميرة وذخيرة ومعدات مما جعل حالة الجيش الهزيم في منتهى البؤس واليأس ، وقد تمكن الكونت بيار ومعه بضعة ضباط أن يفلتوا من ذلك المعسكر فهاجوا على وجوههم وهم لا يدرون أي طريق يسلكون ولا عند أي غاية يقتنون كما كانوا يتساءلون عن مصير ملكهم كارلوس بعد سقطته وانكساره فلا يعدون من أمره شيئاً ثم قام أحد الكونت بيار وهو قائد الف وزعم أنه يعرف طريقاً للنجاة وللأمن حيث يجدون شيئاً من أمتعتهم ومثولتهم وطلب منهم أن يتبعوه فتبعوه ولكن تضعف حواسه وحواسهم وعوامل الرعب في قلوبهم جميعاً وحيلولة سحب الدخان والغيوم دون ما يعرزم من تبين الطريق وتغير الجهات خيب آمالهم فهاجوا ثم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم أمام قوة من أعدائهم الروس فاستسلموا اليهم في رمشة عين

« وأما الملك كارلوس فلم يبدأ في أول الأمر أن يشارك حيثه في الهزيمة ولكنه لم يكن قادراً على الدفاع وكان الى جانبه الجنرال بونياتوفسكي وصفيه قائد حرسه الخاص الكولونيل ستانلاس وهو رجل شديد الاخلاص للملك والتعلق به وقد برهن في عدة مواقف على ماله من ثبات ورباطة جأش وحضور ذهن . فلما رأى تلك الحالة المشؤومة أسر رحلين من فنل حرسه الباقيين بقرية تتقدم من الملك وأمسكاه من تحت ابطيه وأوكباد جواداً قوياً فركب متجلاًد مع ما كان يقاسيه من الآلام المبرحة الناجمة عن جراحه

« وكان الجنرال بونياتوفسكي قائداً اكرامياً بغير قيادة وانما همته المشاركة في الرأي والنشورة ولكنه في تلك الحال للاستثنائية تحول الى قائد فني فأسرع في جمع شمل من بقرية من مقاتلة الاسويجين فاجتمع له منهم خمائة رجل ما بين راجل وفارس وجندي وضابط فتول تنظيمهم وقيادتهم وقد أثيرت أرواحهم حماسة وحب تضحية حين رأوا ملكهم في ذلك الخطر المدين وتمكنوا من الوصول به الى مركز للعتاد الاسويجي بعد مسيرة ميل وبعد ما اخترقوا قوة من الجند الروس اعترضت طريقهم . وفي أثناء الطريق وكان العدو يطاردهم قتل جواد الملك فتقدم منه الكولونيل جيانا وكان محروفاً ودمه يسيل بفزارة فترجل عن جواده وقدمه للملك فركبه عليه . وعمل القول ان حوادث تلك المارعة زادت القوم محبة

على محنة وويلًا على ويل ، ولم يكن لهم مندوحة من الحرب وقطع مسافة طويلة فلما بلغوا موضع السناد الاسوجي وجدوا بين المعدات هناك مركبة للكونت يار فأسرعوا الى أخذها وأركبوا الملك فيها عوضاً عن جواده ثم أخذوا في طريق نهر بورستين . ولم يكن الملك منذ أركبوه الجواد في أول انهزامه الى تلك الساعة قد نطق بكلمة واحدة فلما ركب المركبة وهم باستئناف السير مع رفاقه التفت الى بعضهم سائلاً : « ما الذي جرى للكونت يار » فأجابوه : « أخذه الروس أسيراً ومعه أعوانه » فسأطهم « وماذا جرى للجنرال رتشيلد والدوق ورتمبرغ » فأجابه الجنرال برنياتوفسكي : « وقعا أيضاً أسيرين في قبضة الروس » فهز الملك كتفيه قائلاً « أخذهم الروس جميعهم » فيها بنا الى الأتراك قال الملك ذلك بلهجة مرضية وملاصح وجهه على حالها ولا يمكن أحداً يراه أن يظنه ذلك الرجل المنكسور المنهور النخس جراحاً .

« وفي أثناء حربه مع أمرائه استولى الجيش الروسي على المدافع الاسوجية المنصوبة قرب نهر بولتافا وعلى ما هناك من الاعتدة المختلفة وأهمها الخزانة العسكرية وفيها مبلغ جسيم من النقود كان كارلوس قد غنمها من البولونيين والكونيين حينما انتصر عليهم . وفقد البلغاريون في تلك المعركة ستة آلاف أسير وتسعة آلاف قتيل من الاسوجيين ومن حالقهم من القوزاق . وبقي في قيد الحياة مشقتين مبعثرين ستة عشر ألف رجل ما بين أسوجيين وبولونيين وقوزاق . ووجهتهم جميعاً مدبسة بورستين تحت قيادة الجنرال ليننموت . وبعد قليل تحطمت مركبة الملك من وعورة الطريق فأركبوه جواداً . ومما زاد الطين بلة ان الليل هجم عليهم فضلوا طريقهم وسط غابة كثيفة اضرتهم وبلغ الاعياء من الملك مبلغاً لا يطاق وزادت آلام جراحه فأزلهوا واضطجع على ساق شجرة وكان هو ورفاقه هناك تحت خطر الاسر في كل لحظة لأن مطارديهم الروس كانوا يبحثون عنهم في كل جهة .

« وفي غداة ١٠ تموز (يوليو) أصبحوا أمام نهر بورستين فلما رأى الاسوجيون الذين هناك ملكهم في قيد الحياة فرحوا به وتهللت وجوههم اذ كانوا يرجحون هلاكه ولكن سرعان ما عادوا الى السكابة والنهم حين شاهدوا ما هو فيه من الآلام والشقاء . ولم يكن للهاربين يد من عبور النهر وأتى لهم ذلك والنهر كبير عظيم الخطر قوي التيار ولا جسر عليه ولم يكن لهم لاجل الدفاع عن أنفسهم حين يلغهم العدو بل لو كان لهم البارود السكاني لما أجدتهم تقفاً اذ لا طعام عندهم يمكث عليهم رمقهم وقد قضوا على الطوي انبومين الآخرين حتى خارت قواهم . وبعد البحث والتفكير وتقلب الامور على كل وجوهها اعترموا عبور النهر معولين على خبرهم وقوتها وصلابتها اذا خاضت النهر متراسة . وأما ذلك فكانت الحلى قد أخذت منه كل ماخذ وأفتدته حسه وتمييزه فتقلوه كأنهم ينقلون شيئاً جاداً ولو بقيت له بقية من

الادراك والتمييز لكان من القريب الامكان ان يأمرهم بالتربص والانتظار للقاء العدو ومكافئته وهي مجازفة غريبة هائلة ولكنها غير بعيدة عن قائد مثل كارلوس الثاني عشر وعن جيش مثل جيش الاسوجي . حملوا الملك الى مركب ضعيف وجدوه على ضفة النهر وأركبوا معه قائداً قوزاقياً من أحلافهم برتبة جنرال وهو الجنرال مازيا وكان قد تمكن من حشد مبالغ من القنود في صناديق ممتلئة قبل استيلاء الروس عليها فأزطها معه الى المركب ولكنه لم يلبث ان أحس بمخطر الفرق لنقل الحولة فرمى في عباب النهر ثلاثة أرباع تلك الصناديق بقصد تخفيف الحولة وانتفاء خطر الفرق فلم يهر الملك وبخاوة المركب وأما قول الجيش الاسوجي هناك فكانت ثلاثمائة خيال وجهدوا من المشاة . أما الخيالة فحاصروا النهر متلاصقين بحيث كانوا يتلاصقون بقوة عظيمة تحملت قوة التيار وتغلبت عليها فغمر معظمهم النهر سالمين حتى بلغوا ضفته المقابلة ولم يهلك من الفرسان الا قليلون هم الذين كانوا في أطراف المركب متنعين قليلاً عن قوة الزدحم فغرقهم التيار وهلكوا غرقاً كما غرق كل المشاة الذين سبحوا في النهر وراء الفرسان « وبينما كان أولئك على تلك الحال هم وسائر فرقهم المنهزمة الهاثمة على وجهها كان القائد الروسي الأعلى الجنرال مزيكوف يطارد فلوطم ومعه عشرة آلاف فارس وقد أودف كل فارس جندياً من المشاة ورائه . ولم يتعذر على الروس أن يعرفوا الطرق التي يسلكها المغلوبون في هزيمتهم بل استدلوها عليها بحيث قتلام وآثار دماهم المنتشرة في تلك القلوات على مسافات متفاوتة فلما اقترب منهم المنتصرون أرسل الجنرال مزيكوف رسولا الى قائدهم الأعلى ليفسحوا ليطالبه بالاستسلام والخضوع التام مع كل جيشه الباقي وعدده ستة عشر ألف مقاتل فلم ير القائد الاسوجي بدءاً من الزول على هذا الحكم المرّ الا ليم اذ لم يبق للأسوجيين بارقة أمل واحدة لا بالانتصار ولا بطول المدافعة . وكانت عوامل النشوة من ضعف وجوع وانكسار ومحاطر الطرق والهزيمة قد فعلت فعلها العجيب في تلك النفوس الجبارة التي لم تتعوّد ذلاً ولا استكانة بل كان ستة عشر ألف مقاتل اسوجي في السنوات السابقة أهلاً لأن يقاوموا الامبراطورية الروسية من أقصاها الى أقصاها مع أمل واجح بالانتصار استناداً الى المعارك التي دبرت رحاها بين الدولتين قبل معركة بولنافا . ومن ثم أرسل القائد ليفسحوت أربعة قراد وكل منهم برتبة جنرال الى القائد المنتصر مزيكوف يعجبونه بالايجاب الى ما طلب ويعقدون بين الفريقين كتابة الشروط المتفق عليها وهكذا تمّ الصلح « وهنا تدانى الفريقان والفريق الاسوجي متأهب للخضوع والتسليم على الصورة التي فرضها عليهم قاهروهم بشأرتهم للكونونيل الاسوجي تروتير اي اشترازا من ذلك الطوان وأراد المقاومة ورجاله أملين ان يحذو غيرهم من رفاقهم حذوهم ثم هموا باستئناف القتال فلحظ منهم ذلك قائدهم الأعلى ليفسحوت فقدم عنه بالحس وقوة الاقتاع فكفوا وشاركوا الباقين في تسليم

« وبعد قليل تقدم ستة عشر ألف جندي أسوجي وفي مقدمة كل كتيبة قوادها وضباطها ووضموا أسلحتهم بالتدريج عند قديمي الجنرال ميزيكوف وكان ثلاثون ألف مقاتل رومي منذ ثلث سنين على أن أسكاهم في معركة نازفا قد فعلوا هذا العمل ملقين أسلحتهم عند قديمي الملك كارلوس وبعد استسلامهم أطلق الملك سلاحهم مظهرًا أنه لا يخشاهم ولا يهجه ورجوعهم إلى محاربه . وأما الامبراطور بطرس الأكبر فلم يفعل فعله بل احتفظ قائده ميزيكوف بحسب أمره بأسراه من الأسوجيين وحللتهم ريثما تم جمع مظاهر الصلح وتورد مياه السلم إلى مجراها

إلى هنا انتهى الفصل الذي تولينا نقله وتعريبه عن الكاتب الفرنسي فولتير . وقبل الخروج من هذا الموضوع لا بأس أن نورد مرويوات يسيرة بقيت في معرضنا عن ذيك العالمين كارلوس الثاني عشر وبطرس الأول . فقد زعم بعض الرواة أن جماعة من خراس الملك كارلوس تفاوضوا في حضرته ذات يوم أحاديث مختلفة حتى أقفوا إلى حديث الموسيقى وأخذ كل منهم يذكر اللحن الموسيقي الذي يختاره على سواه من الألحان . فألقت الملك إلى كلامهم حتى فرغوا منه فقال لهم : « أما أنا فأطيب الألحان عندي وأدعاهما إلى الطرب لعلنا المذاق في معركة حامية الوطيس » . ولم يكن في ما قاله مبالغة ولا منصفًا استناداً إلى ما عرف عنه من ولوعه بالحروب والغارات . وما يؤثر عن وثائق وكرم أخلاقه مع قوة عزيمته أنه ذات يوم كرخ من البحر الممتدة أكثر مما تعود فرأته جدته على تلك الحال وهي التي ربه ووقفت حياتها لأجله وكان هو باراً بها إلى الدرجة التي صارت فساءتها منه هذه البادرة وطائفة عليها فأغلظ لها الجواب وأهانها بلهجة انتهاز فسكتت وعادت إلى مقصورتها مفجومة ودخل هو مقصورته وبات ليلة وعند ما أصبح لم يتذكر شيئاً مما جرى الليلة البارحة وانتظر جدته أن توافيه بحسب جاري حديثها لكي تتناول معه طعام الصباح وتساوئس بحديثه هنيهة ثم تقبله وتزوده بدعائها قبل انصرافه إلى عمله في دار الحكومة . انتظر دخول جدته وطال انتظارها عبثاً طار واستغرب تخلفها وسأل ملضم الدين حوالية أي منصرفه الصحة فأجابوه سبباً فقال ولماذا لم تأتي فزمو ، الصمت وبعد ما ألح في السؤال تحمراً رئيسهم وهو شيخ وقور على أن يقضي إلى الملك في أسلوب لطيف مما جرى منه البارحة فأجر وجهه خجلاً وأطرق مفكراً بعد ما صرف نظره ثم أترع كأنه من البحر وحملها ودخلها على جدته وبعد ما حيَّاهما قال طاماً مؤدباً : المعني يا جدتي العزيزة ما جرى مني إزاءك الليلة البارحة في ساعة لم أكن فيها أملك شعوري وصوابي والذي سألني من هذه البادرة الحاضرة أعظم من الذي ساءك وماذا جئتك وبدي كاس خمر وكل ما عندي من الاعتذار

والاستنفار إلى أشرب هذه الكأس على حبك وطاعتك واعداءك أن تكون آخر كأس
أشربها في بقية حياتي . أفلا يرضيك مني هذا الاعتراف وهذا التكفير عن ذلتي تلك يا جدي
العزيزة — فأشرق وجهها وأبتسمت وقالت له : « بلى بلى يا ولدي وحبيب قلبي » فشرب
كأسه وقبل جده . وقلته وأقام بقرها نصف ساعة ثم زودته بدعائها والصرف إلى عمله
وأما عدوه القيصر الروسي بطرس الأكبر فما يروى عنه أنه في أثناء الحرب التي دامت
بينهما سبع سنوات كان يقوم بتجهيزات تلك الحرب الضروس وبندريب جيشه في حلس
من الوقت على نظام فني جديد عن يد قواد أوريين ماهرين استخدمهم واستخدمهم لهذه
الغاية ولم يكن الجيش الروسي يعرف نظاماً ولا ترتيباً ولا خبرة له في استعمال الأسلحة
الحديثة مما جعله ينكسر في معظم معارك تلك الحرب ولم تقده كثيراً شجاعته وبسالته
القطرية . وكما وصل إلى القيصر خبر انكسار جيشه في معركة كان يتجدد ويقول : « سنتحول
الحال وتأتي نوبتنا في الانتصار ذات يوم » وقد رأى القاريء كيف حدثت معركة بولتافا
حده وحقت آماله . ولما انكسر الروس انكسارهم الشنيع في معركة نارفا قلب بطرس
جيشه وقال لرجال حاشيته : « إن جازنا كارلوس يريد أن يجعل نفسه اسكتلو المنكدوني .
وقد يكون له ذلك ولكن هيات أن يجمدي أمامه داربروس القارمي » وقد أشار بكلماته
تلك إلى انتصارات الاسكندر المتعددة على داربروس بجيوش ومعدات دون جيوش عدوه
ومعداته . وقد تم انتصاره عليه نهائياً في معركة اربل من أعمال ما بين النهرين . وما يحكي
عن بطرس الأكبر أنه بعد انتهاء الحرب بينه وبين كارلوس أقام في قصره وليلة شائقة دعا
البيكار القواد من جيشه وكبار القواد من أسراه الاسوحيين . وعند افتتاح الوليمة
تناول كأس خمر وقال : « إني أشرب هذه الكأس بحب الرجال الذين علمونا الحرب »
ثم شرب كأسه . فقام أحد القواد الاسوحيين وسأله : « ومن الذين علموك الحرب
يا صاحب الجلالة » فأجاب : « أنهم الاسوحيين علمونا الحرب وأمرارها ومكايدها » قال
الاسوحي : « اسمح لي إذن يا صاحب الجلالة أن أقول لكم انكم ناكروا الجليل » قال القيصر :
« وكيف ذاك » قال : « لأنكم لا تزالون تحفظون بأساتذتكم ومعلمكم هؤلاء أسرى بين
أيديكم وتسومونهم عذاباً أليماً بانصالحهم عن أوطانهم وأولادهم وأهلهم » أنت في عيني
الامبراطور هذه المرأة وهذه التكتة حتى ضحك مقهراً وقال : « لا بأس عليك وعلى رفاقك
سترون غداً ما يسركم » وفي اليوم الثاني أمر بإطلاق أسراه من ضابط الاسوحيين وأمرام
فانصرفوا إلى بلادهم قسرين مرفوضي الكرامة

نكفي هذا القدر من أخبار العزوة الاسمحة في روسيا وفشلها وما يتلحق بها

السوية المنحازين

سبع